العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

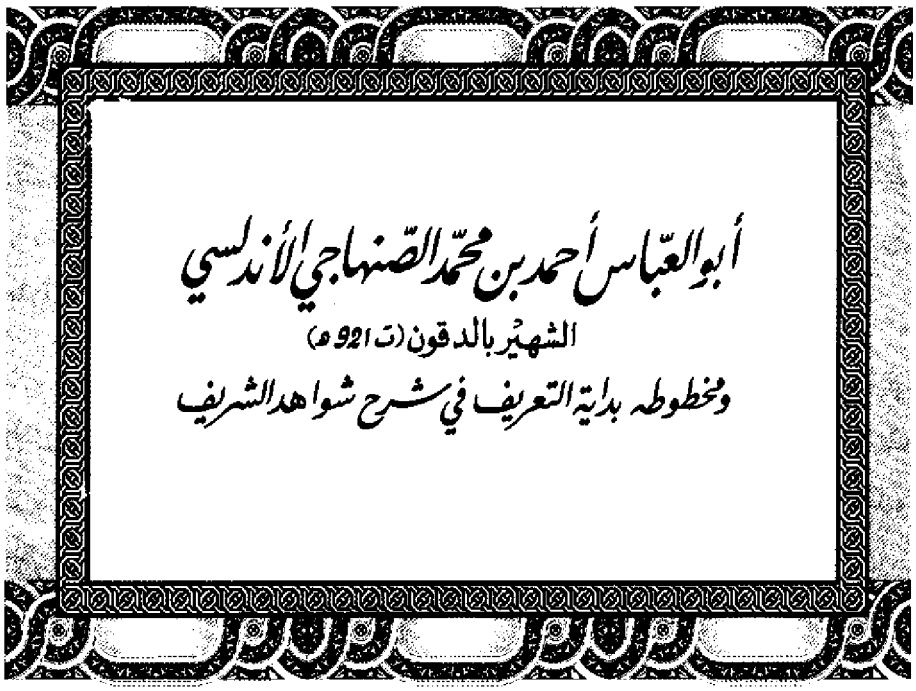

الدكتورة: سعيدة العلمي
كلية آداب فاس - المغرب

نظرات في حياته وآثاره

يعد أبو العباس الدقون أحد أعلام الأندلس المتأخرين، نزح عن غرناطة في أيامها الأخيرة واستوطن مدينة فاس، فلقد شاء له القدر أن يوجد في حقبة حرجة من تاريخ المغرب والأندلس، وأن يعاين سقوط آخر معقل للمسلمين بالأندلس[1] كما عاين نهاية دولة وبداية أخرى بالمغرب[2] مع ما صاحب ذلك

(1) فقد تم سقوط غرناطة عام: (879هـ ـ 1492م).

(2) فقد عانت فاس من الثورات والفتن خاصة بعد مقتل أبي عنان المريني سنة 759هـ، وتعاقب على العرش المغربي أربعة عشر ملكاً في زمن يسير كان آخرهم عبد الحق المريني الذي قضي عليه عام 869هـ/ انظر تاريخ المغرب لابن عبود: 1/ 186 ط 1951 ـ تطوان.

من فتن واضطرابات واحتلال للشواطىء المغربية[3] «ولا خفاء بما كان لملوك الإسلام والمسلمين بالأندلس والعدوة على النصارى ـ دمرهم الله ـ من الاستطالة والغلبة حتى وقع التخاذل والتدابر فانعكس الأمر... وذلك لاجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة وبين حماتها في الفتن المبيرة»[4].

ولم تكن شخصية أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي الحميري الأندلسي الشهير بالدقون مغمورة، ولذلك تناقلت كتب التراجم الحديث عنه[5]، ونعتته بالفقيه الأستاذ المقرىء الراوية المحدث، الشاعر، الفذ، الأوحد، الخطيب بجامع القرويين.

ونحن حين نبحث عن ملامح حياة هذا الرجل خاصة، في مراحلها الأولى، فما قدمته كتب التراجم يعد خافتاً، إذ اكتفت بالإشارة إلى أخذه عن علم من أعلام الأندلس في قرن 9هـ بغرناطة وهو: أبو عبد الله محمد الموَّاق[6]، فقد أخذ عنه عدة كتب في أنواع من العلوم، كما روى عنه فهرسته دون تحديد لمولده، ونشأته، وشيوخه في هذه المرحلة.

أندلسية الدقون: ولعل أهم ما تجسد حنينه إلى غرناطة وشوقه إلى

---

(3) كما أن البرتغال احتلوا معظم الشواطىء المغربية: انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين: 1/ 40 ط 1976 دار الأمان ـ الرباط، وتاريخ المغرب لابن عبود: 1 ـ 187.

(4) انظر مخطوط تكميل زهر الرياض لأبي عبد الله محمد القنطري القصري: 16 ـ 17، مخطوط خاص.

(5) انظر في ترجمته: جذوة الاقتباس: ص132، ودرة الحجال: 1/ 92، وأزهار الرياض: 1/ 103 ـ 108، ونيل الابتهاج: 136، وشجرة النور الزكية: ع/ 1031، ج1/ 276، وسماه بالدقوني وتوشيح الديباج: ت36/ ص64. وسلوة الأنفاس للكتاني 3/ 248، وأعلام المغرب العربي لابن منصور ت: 1450 ـ 5/ 120 ـ 124، والحركة الفكرية في عهد السعديين: 2/ 384، والأدب المغربي لابن تاويت، وعفيفي ص: 263 بيروت إلى غير ذلك من المصادر والمراجع.

(6) هو محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري شهر بالمواق ت897هـ عن سن عالية، مفتي الحضرة، وخطيبها وآخر الأيمة بها، له شرحان على مختصر خليل، وكتاب سنن المهتدين، في مقامات الدين. انظر في ترجمته: نيل الابتهاج: 561 ـ 563.

ربوعها، تلك القصيدة التي نظمها لما غابت شمس الإسلام عنها، والتي ساقها المقري[7] في أزهاره: حيث قال: ولأبي العباس أحمد الدقون ـ رحمه الله ـ قصيدة في ندب الجزيرة تذكر النفوس بشجوها، فترسل العيون دموعهاالغزيرة، افتتحها بنشر نصه: «الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل، أما بعد فيقول خُدَيْم أهل الله تعالى، عُبَيْد الله أحمد بن محمد الأندلسي الشهير بالدقون. . . إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء بأخذ الحمراء، قرعت باب الندبة لما تقدم من الصحبة؛ فقلت أبياتاً صدرت من قلب كئيب، مبكية كل لبيب أريب. . الخ. فقوله: لماتقدم من الصحبة. إشارة إلى صحبته لأهلها، وسكنه بأرضها، كيف لا وهو القائل عنها:

«وهل تعود ليال قد سلفن بها ونحن لا نشتكي تنكيد ضلال
وهل يعود لها الدين الذي أنست به وقد أيست من فتح وإبدال»[8]

كما وصف حال المسلمين بغرناطة عند نزول النصارى بمرج غرناطة فقال:

فاستوطن المرج لا ينوي الرحيل ولا يخشى المغيث بسهل أو بأجبال
والمسلمون من الأضغان قد ملئت قلوبهم وأبوا تسديد أخلال[9]
والحق مختلف والحمق مؤتلف والكل منصرف عن نصر أبطال
وهم لديه كطير وهو ينتفه والطير يرجو البقا مع كيد قَتَّال[10]

فلقد صور الحالة التي كان عليها أهل الأندلس، ورغبتهم في البقاء بها،

---

(7) وأيضاً وردت عند القنطري القصري في تكميل زهر الرياض: ص59 ـ 65. . . ، وأزهار الرياض: 1/ 103 ـ 108.

(8) أزهار الرياض 1/ 106، والأبدال: المراد بهم الاستنصار بالأولياء عند اشتداد الأزمات، والأبيات من قصيدة الدقون التي مطلعها:

أمنت من عكس آمال وأحوال وعشت ما بين أعمام وأخوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد فالجسم مشتغل من غير أشغال
وكيف لا وبقاع الدين خالية من أرض أندلس من أجل أهوال

(9) الأخلال: جمع خلل وهي الثغرة في الصفوف وغيرها.

(10) م.س: 1/ 105.

على الرغم من كيد القتال، وعلى الرغم من ما كانوا عليه من اختلاف، وفتن ومن ضعف وخذلان.

ولقد كان للدقون من كل ذلك رأي وهو النصيحة بالرحيل عن الأندلس حيث قال:

والصيف ضيعت ما أملت من لبن ففارق الجبح من تدخين نحال
وأرحل بنحلك نحو الغرب في كرم من قبل وضعك في قيد وأغلال[11]

وهو في هذا يصور حاله؛ إذ تشهد المصادر برحيله مع والده عن غرناطة، وأخذه العلم عن شيوخ فاس، وهي المرحلة الثانية في حياة الدقون، فقد قرأ بالسبع على الأستاذ محمد بن الحسين النيجي الشهير بالأستاذ الصغير[12] بجامع القرويين، ولما مات كمل على يد الشيخ محمد بن غازي العثماني[13] كما أخذ عن جماعة يطول ذكرهم.

لقد وجد الدقون في مدينة فاس من الحفاوة ما لم يجده غيره من الأندلسيين فيما بعد، إذ كان من قضاء الله وقدره أنهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والطاعون حتى فر الناس منها بسبب ذلك، ورجع بعض أهل الأندلس إلى بلادهم.. وركنوا إلى الدجن»[14].

---

(11) م.س: 1/ 106.

(12) محمد بن الحسين بن محمد بن جماعة الأوروبي النيجي، شهر بالصغير كان مولده ببلاده نيجة، بطن أوروبا عام 803هـ توفي بفاس 887هـ، شارك في سائر العلوم الشرعية وبلغ في علم النحو ما لم يصل إليه أشياخه، من تلاميذه ابن غازي، والدقون وغيرهما، انظر نيل الابتهاج 554 ـ 556، وألف سنة من الوفيات: 268.

(13) هو محمد بن أحمد... بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي (841هـ ـ 919هـ) كان إماماً مقرئاً مجوداً صدراً في القراءات متقناً فيها، قائماً بعلم التفسير والفقه والعربية متقدماً فيها، ولي خطابة مكناسة ثم بفاس الجديد، ثم الخطابة والإمامة بجامع القرويين، له تقييد نبيل على صحيح البخاري، وشفاء الغليل في حل مقفل خليل، وتكميل التقييد وتحليل التعقيد على المدونة. وحاشية على الألفية، ومنية الحساب في الحساب (بديع النظم) وشرحها سماه الطلاب، وذيل الخزرجية في العروض وغير ذلك من التأليف/ انظر نيل الابتهاج: ص581 ـ 583، وتوشيح الديباج: ص176، وجذوة الاقتباس: ص203، وفهرسة المنجور: ص21.

(14) انظر مخ تكميل زهر الرياض: ص22.

ولعل الدقون رأى وسمع ما حل بأهل الأندلس، ودين الإسلام بها تنتثر نجومه، وتطمس معالمه، وأهله يكرهون على التنصر إكراهاً، فدعا ولاة فاس إلى التلطف في معاملة المهاجرين، وإكرامهم، لأن الدهر ذو دول فقال:

«فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا ... فالدهر ذو دول فاسمع لأمثال
إخوانكم رفعوا أيدي الضراعة مع ... كسر القلوب فلا يلقوا بإخمال
وقُلْ لوالٍ تلطف في مغارمهم ... يلطفْ بك الله إذ تدعى بأحمال»[15]

كما دعاهم إلى رفع المغرم الثقيل عنهم، ورأى فيهم عبرة لأن الدهر ذو دول، ويحذر من الخطر الذي يحدق بالمغرب ناصحاً واعظاً:

«يا أهل فاس أما في الغير موعظة ... إن السعيد لموعوظ بأمثال
فقل تعالوا إلى نصح وتذكرة ... فالأمر جد فلا تصحب لمكسال
كيف الحياة إذ الحيَّات قد نفحت ... على السواحل أو همت بإرسال»[16]

ففي هذه الأبيات إشارة إلى ما كان عليه المغرب آنئذ من احتلال لسواحله، وما كان عليه من ضعف وانحلال وصراعات متعددة داخلية وخارجية[17]، ورغماً عن ذلك فإن الحياة العلمية بالمدينة الإدريسية لم تَخْبُ، وكانت دروس العلم والتعلم تؤخذ بجامعها، وكان للعلماء تآليف ومناهج وإجازات ومشاركة في مختلف مناحي المعرفة، ولقد كان الدقون أحد هؤلاء، فكتب التراجم تحدثنا أنه أخذ العلم بفاس، ودرَّس الفقه وقواعد العربية بجامع القرويين، وكان مقرئاً وخطيباً بهذه الجامعة خلفاً لشيخه الفذ عَلَم الأعلام الخطيب الأوحد محمد بن محمد بن غازي.

---

(15) انظر أزهار الرياض: ص1/ 107.

(16) انظر أزهار الرياض: ص1/ 107.

(17) لقد واجه الوطاسيون في بداية حكمهم انتفاضات القبائل إلى جانب الغزو الإيبيري، وقد دام هذا الصراع بين المغاربة والبرتغاليين سنة 818هـ ـ 986هـ حيث كانت وقعة وادي المخازن، انظر تاريخ المغرب لابن عبود: 1/ 188.

كما منح الدقون الإجازات لتلاميذه، نظم بعضها في أبيات كقوله في شقرون بن أبي جمعة المغراوي الوهراني[18]:

«أجاز لك الدقون يا نجل سيدي أبي جُمعةٍ والآل كلَّ الذي روا
فحدّث بما استدعيت فيه إجازة وسلم على من خالف النفس والهوا»[19]

وقوله في أبي القاسم محمد بن إبراهيم المشترائي:

«أشهدكم يا من حضر أهل البداوي والحضر
أني أجزت قاسما ابن الفقيه المعتبر»[20]

وتذكر كتب التراجم أن وفاته كانت في مستهل شعبان المعظم سنة إحدى وعشرين وتسعمائة بمدينة فاس، وخلفه في خطابة القرويين محمد بن محمد بن غازي ولد الشيخ ابن غازي ـ رحمه الله ـ.

تآليفه:

شعره: وصفه صاحب سلوة الأنفاس[21] بالشاعر الفذ الأوحد، إلا أن مصادر ترجمته لم تحفظ لنا سوى قصيدته في رثاء الأندلس[22] التي نقلنا بعض أبياتها في رصد مراحل من حياته، وبعض الإجازات النظمية التي أشرنا إليها سابقاً، وفيما عدا ذلك فلا نعثر على شيء يجسد شاعرية الدقون، ويكشف لنا عن إبداعه الشعري.

أما نثره: فلا تذكر له المصادر سوى كتابه: «بداية التعريف في شرح شواهد الشريف»، وهذا التأليف جاء في شرح شواهد أبي عبد الله محمد بن

---

(18) ت 927هـ له قصيدة في رثاء شيخه ابن غازي. وله تعاليق منها: الجيش الكمين في الكر على من يكفر عوام المسلمين. انظر في ترجمته: نيل الابتهاج: ص199، وتوشيح الديباج: ص107.

(19) انظر جذوة الاقتباس: ص132، ودرة الحجال: 1/ 92، وسلوة الأنفاس: 3/ 248.

(20) انظر جذوة الاقتباس: ص132، ودرة الحجال: 1/ 92، وسلوة الأنفاس: 3/ 248.

(21) انظر سلوة الأنفاس 3/ 248.

(22) وردت في أزهار الرياض: 1/ 104 ـ 108، وفي تكميل زهر الرياض: ص59 ـ 65، وفي أعلام المغرب العربي: 5/ 122 ـ 124.

أحمد بن يوسف ابن يعلي الشهير بالشريف الحُسْني[23]، من أهل فاس اشتغل بشرح الأجرومية حتى أكمله، وسماه بالدرة النحوية في شرح الأجرومية[24].

ولكتاب الدرة شروح[25] منها كتاب بداية التعريف، ولهذا الشرح عدة نسخ[26] خطية توجد في خزائن متعددة برحاب المغرب، وقد عقدنا الأمل على تحقيقه وإخراجه. بعد أن قابلنا بين نسخه، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة نسخة القرويين لوضوحها وقلة خرومها.

سبب التأليف:

ويذكر لنا المؤلف سبب تأليفه لهذا الشرح فيقول:

«وبعد... أيها الأخ الأصفى، الخليل الأوفى، فإني أردت أن أطعلك على أنموذج حسن التصنيف، يشتمل على شواهد سيدي الشريف؛ لما رأيت من اعتناء أهل العصر به، واعتصامهم في حل ألفاظ الأجرومية المباركة بسببه، ولعمري إنه من أحسن ما ألف، ومن أنفع ما في فنه صنف، لكن أكثرهم غير

---

(23) لا تعرف وفاته، مدفون قرب عتبة الحمراء، ضجيع مؤلف الأجرومية والشريشي صاحب النظم المسمى بمورد الظمآن: انظر في ترجمته جذوة الاقتباس: ص244، ودرة الحجال: ت601 إذ ذكر أنه أخذ عن منديل ابن آجروم وغيره، وسلوة الأنفاس 2/ 119 ـ 120، وذكر أنه من أهل القرن الثامن، لأن شيخه منديلاً ت772هـ. وانظر دعوة الحق: ص101 ع338 السنة 29/ 1419هـ ـ 1998.

(24) وقد حقق الدرة النحوية الأستاذ عبد الرحمان بن مردد الطلحي في رسالته الجامعية لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها/ تخصص النحو والصرف تحت إشراف د. عياد التبيتي بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة سنة 1414هـ/ 1994.

(25) وهي ثلاثة شروح منها: بداية التعريف الذي ستتحدث عنه.
وفتح المولى بشرح شواهد الشريف أبي يعلى لعبد الكريم بن محمد ابن عبد الكريم الشهير بالفكون ت: 1073هـ وقدذكره عيسى الثعاليبي في كنز الرواة. وأبو سالم العياشي في رحلته.
والأسرار العربية في شرح الدرة النحوية لقاسم بن محمد بن محمد بن قاسم بن أبي العافية الشهير بابن القاضي ت1022هـ منه نسختان: الأولى: بدار الكتب الوطنية بتونس: تحت رقم: 4735. والثانية: بمؤسسة علال الفاسي بالرباط ضمن مجموع رقم 669ع.

(26) توجد له نسخ خطية بكل من الخزانة الحسنية والعامة والقرويين، والمكتبة العامة للمخطوطات بتطوان، والخزانة الصبيحية.

عارف بما فيه من الشواهد، وما في طيها من النكت والفوائد، فشمرت عن ساعد الاجتهاد لتحصيلها، وسألت العون من رب العباد لتكميلها»[27] فاعتصام أهل العصر بهذا الشرح وما فيه من الشواهد، وما في طيها من الفوائد من أهم أسباب هذا التأليف.

وقد افتتح المؤلف هذا المخطوط بقوله: بعد البسملة والتصلية:

قال عبيد الله تعالى الراجي رحمة مولانا وغفرانه أحمد بن محمد الدقون رضي الله عنه: الحمد لله الذي له في كل مخلوق شاهد ناطق بلسان حاله أو مقاله إنه إله واحد منزه عن الشريك والشبيه والمعاند، حمداً دائماً دائباً لا انفصال له، ولا انفصام وصلى الله على المصطفى الكريم سيّد العالمين، ذي الشريعة السمحة واللسان العربي المبين...»[28].

وهذا يدل دلالة واضحة على صحة نسبة الكتاب إلى مؤلفه «الدقون» أما آخر المخطوط فيختمه بقوله:

«كمل بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه على يد العبد المذنب الفقير الراجي رحمة مولاه، وكان الفراغ منه عشية يوم السبت فاتح شهر الله المحرم سنة أربع وثمانين وألف، وصلى الله علي مولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين»[29].

هذا وقد صدّر مؤلفه بنكتة رفيعة، وختمه بخاتمة بديعة، ففي مقدمة الكتاب حاول تقديم تعريفات واستنباط أحكام، فقد بحث عن موقف الشرع من علم العربية، وإنشاء الشواهد الشعرية، وطلب الدليل عليهما من السنة والكتاب: «إن الله أرسل إلينا رسولاً صادقاً أميناً حكيماً كريماً عربياً مبيناً، وجعله بالمؤمنين رحيماً، وبعثه من أنفُسهم وأنفَسِهم وكان ذلك بنا لطفاً عظيماً، وأنزل

---

(27) بداية التعريف/ مخ القرويين/ ص:182 (ضمن مجموع يمتد من ص181 ـ 304). وهو جزء صغير بخط مغربي رائق مرصع بالخط الأحمر في كاغد مجدول.

(28) بداية التعريف: ص181.

(29) م.س مخ القرويين: 304.

عليه روحه الأمين بكتاب عربي مبين، وأمر بالتحويل عليه، وأوجب الرجوع إليه... وقد تواترت الأخبار، عن السادات الأحبار، وأنه قال عليه الصلاة والسلام: إذ أثنى على الصحابة الكرام: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم...».

وقد صح عن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه أمر أبا الأسود الدؤلي أن يصنع كتاباً في النحو، وقال له: إن كلام الأولين والآخرين مركب من اسم وفعل وحرف فانح نحو هذا المذهب، قيل: فلذلك سمي بالنحو. فإذاً علي بن أبي طالب هو الذي فتح هذا الباب[30].

هذا ما يخص نشأة النحو ووضع قواعده فقد قرر جواز الاشتغال بعلم العربية اقتداء بالأيمة والسلف الصالح.

أما الاشتغال بالشواهد الشعرية فالدليل عليها «أن النبي ﷺ لما أمر بإعراب الذكر قال: والتمسوا غريبه في الشعر.

وقد كانت عائشة رضي الله عنها تحفظ عشرة آلاف بيت منه، وقد قال عليه السلام: خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء»[31]. ثم يطرح التساؤل التالي بعد تقسيمه الكلام إلى نثر ونظم بقوله: «فإن قلت كيف يصح ذلك عن عائشة، وقد قال عليه السلام: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً وصديداً خير له من أن يمتلىء شعراً»؟

قلت: قد أجابت هي عن ذلك حيث أنكر عليها ذلك، إن ذلك خاص بالشعر الذي كان المشركون يهجونه به ﷺ.

ويرى المؤلف أن هذا الجواب غير مقنع، والمقنع ما قاله عياض في «مختصر العلم»: إنه إن امتلأ قلبه به حتى أشغله عن القرآن وذكر الله والخيرات، فذلك الذي جاء الحديث فيه. وإن كان القرآن والعلم الغالبين عليه فليس هذا

(30) مخ بداية التعريف: 184.

(31) م.س: 184 ـ 185.

بممتلىء، وإن حفظ منه ما عسى أن يحفظ فافهمه فهو حسن»[32].

وللدقون مجموعة من التعاريف فقد عرف «العربية بأنها عبارة عما يحفظ ويقاس عليه من كلام العرب».

وعرف اللغة «بأنها عبارة عمايحفظ ولا يقاس عليه، وهي عبارة عن أصوات منقطعة وحروف منتظمة يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».

أما الأدب فهو عنده ثلاثة أقسام:

طبعي: وهو ما يفطر عليه الإنسان من الاتصاف بالأوصاف المرضية، والتخلق بالأخلاق السَّنية.

كسبي: بالحفظ والنظر واستعمال الفكر وهو النحو واللغو والشعر والخبر.

صوفي: وهو ضبط الحواس، ومراعاة الأنفاس»[33].

ثم يحدد الغرض من علم الأدب في أمرين: «عام: وهو معرفة حفظ اللسان من اللحن، ويجب على أهل العلم معرفة القدر الموصل إلى ذلك.

وخاص: وهو معرفة الغوامض والمشكلات والمعاني الخفيات.

أما فائدته: فهناك: فائدة صغرى: وهي اكتساب القوة على النظم والنثر. وفائدة كبرى: وهي القوة على استنباط الأحكام، وتمييز مبانيها في الكلام»[34].

كما وضع التساؤل حول إمكانية حصر معاني الكلام واختلاف النحاة في هذا الأمر «فذهب قوم إلى أنها لا تنحصر وهو رأي كثير من نحاة البصرة.

وقيل: إنها عشرة: خبر واستخبار، ودعاء وتمنٍّ، وطلب، وأمر، ونهي وتعجب، وعرض، وتخصيص.

---

(32) م.س ص: 185 ـ 186.

(33) م.س ص: 186 مع بعض اختصار.

(34) م.س ص: 187.

وقيل: تسعة. وقيل: سبعة. وقيل: ستة. وقيل: خمسة. وقيل: ثلاثة: طلب وخبر وإذن. قال البهاري: وهو أقربها إلى الصواب»[35].

تلك أهم العناصر التي احتوتها مقدمة الشرح وهي مجموعة أسئلة يطبعها طابع فقهيّ لا يخوض أمراً من الأمور إلا بعد التثبت من جوازه في الشريعة وبعده عما يسمي بالبدعة كما لاحظناه في حكم الاشتغال بالعربية، ورواية الشواهد الشعرية. كما حاول تقديم تعريفات أدبية ولسانية مفرقاً بين العربية واللغة، وبين لغة الأديب ولغة الصوفي.

أما خاتمة الشرح فإنها تمثل النموذج المثال للمربي الصالح وللمتعلم أيضاً، فقد خصها بوصيته لطالب العلم. وهي تذكرنا بخواتم بعض كتب هذا القرن، كخاتمة كتاب «روضة الأعلام» لأبي عبد الله ابن الأزرق الغرناطي الذي خص جزءاً مهماً من هذا الكتاب في آداب العالم والمتعلم، وأسس للنظرية التعليمية بالأندلس القائمة على الكتاب والسنة، وما ورد في ذلك من أحكام العلماء والصلحاء في تربية النشئ، وتكوين الفرد الصالح.

وللدقون وصايا لطالب العلم آثر أن يختم بها شرحه، فأمر طالب العلم بأن يكون «راغباً في ثواب الله تعالى ومرضاته، وفي امتثال أوامره، ومفروضاته، وراهباً من التقصير في الأوامر، والانتهاء عن الزواجر»[36] فقد اشترط الرغبة والرهبة: الرغبة في امتثال الأوامر، والرهبة في الابتعاد عن الزواجر، «فإذا أحكم هذا الفصل فليعلم أنه لا يعتد بما فعل، إلا إذا كان مخلصاً في أفعاله، صادقاً في أحواله، فلينوِ بعلمه ـ أي علم كان ـ وجه الله الكريم إذا رام الفوز بالرضى والنعيم»[37].

فالإخلاص والصدق والنية هي تمام الفوز والفضل من الخشوع والإكثار

(35) م.س: 187 ـ 188.

(36) م.س: 187 ـ 188.

(37) م.س 302 ـ 304 مع بعض اختصار.

من «التضرع والابتهال أثناء الليل والنهار مصاحباً كل ذلك بدعاء مختصر جامع مأثور»[38].

والأدعية عنده واجبة «لأن الدعاء يرد من القضاء، ما وافق القضاء وهو مذهب أهل السنة»[39]، ثم يبسط بعد ذلك الحديث عن الدعاء وكيفيته وأوقاته المتخيرة «فعليه أن يتخير أوقات الإجابة، ويُدْخل فيها إخوانه وأحبابه. . . . ولا يجمع له بإثر الصلوات إذ ذاك بدعة. . . وليدع بظهر الغيب لجميع أبناء جنسه بما يريد الإجابة فيه لنفسه، يجد الإجابة طوع يديه. . .»[40].

وبين المقدمة والخاتمة يوجد شرح شواهد الشريف، ولقد اتخذ المؤلف نهجاً خاصاً في بسطه وعرض شواهده، وهو، وإن كان لم يذكر في مقدمة شرحه منهجاً يخصه في هذا التأليف فإن القارىء يلحظه وبوضوح في كل أبواب الكتاب.

فهو يذكر الشاهد ثم يشرح كل لفظ فيه شرحاً لغوياً معتمداً مهارته اللغوية، ثم يبين موقع إعراب كل لفظ، ثم يلخص معنى البيت في أسلوب أدبي رفيع يظهر ذوقه البديع، وجودة تحليله لتوضيح مدلوله، والهدف من اتباعه لهذا النوع من الشرح واضح الدلالة، فهي طريقة البسط والتسهيل لتعليم الناشئة والمتعلمين، والغاية تحصيل الفهم والإفهام.

ولإغناء شرحه قام بوضع فوائد كثيرة ذيَّل بها كل شاهد من الشواهد ووضع لها عنواناً خاصاً، وهو في هذه الفوائد يبحث عن قائل البيت وينسبه لصاحبه ثم يقدم ترجمة مختصرة له تتضمن اسمه، وكنيته، وتاريخ وفاته، كما يبحث عن المصادر الوارد فيها الشاهد، مع توثيقه بإيراد الأبيات السابقة له أو اللاحقة به، مبيناً ما ينطوي عليه الشاهد من قاعدة لغوية أو نحوية، مبرزاً أحياناً ما قد يكون فيها من خلافات مذهبية، مبدياً رأيه في مواضع كثيرة، مصححاً ما

(38) م.س 302 ـ 304 مع بعض اختصار.
(39) م.س 302 ـ 304 مع بعض اختصار.
(40) م.س 302 ـ 304 مع بعض اختصار.

وقع عن بعضهم من تصحيف أو تقليد خاطىء، منتقداً في أدب ولين دون إفراط أو تفريط.

إن عدد فوائده يفوق المائة؛ إذ لم يترك شاهداً من شواهد الدرة النحوية إلا ذيله بفائدة من الفوائد.

وقد أشار الدقون إلى ذلك في نهاية شرحه فقال: «وهذا آخر بيت من شواهد سيدي الشريف، وبه كملت نهاية التعريف وهو الثاني والمائة»[41].

مصادر الشرح:

للدقون مصادر متعددة في هذا الشرح، إلا أن أهمها كان كتاب سيبويه؛ إذ أتى على ذكره في مواضع متعددة، وهو في ذلك كغيره من الأندلسيين في ولعهم بهذا الكتاب.

كما نجد أسماء مصادر أخرى: من مثل كتاب التسهيل لابن مالك[42]، وكتاب المقامات للحريري[43]، ورصف المباني لأحمد بن عبد النور[44]، وشفاء الصدور لابن سبع[45]، وتلبيس إبليس لابن الجوزي[46].

وهو في نقله هذه المصادر تارة يذكر المؤلف وكتابه، وأخرى يذكر أحدهما؛ ولذلك نجد أسماء أعلام في اللغة والنحو تتردد داخل هذا الشرح كالأعلم، والأخفش والجرمي، وابن السكيت، وأبي عمرو الشيباني، والفارسي وغيرهم.

---

(41) م.س ص: 302.

(42) م.س ص: 218.

(43) م.س ص: 224.

(44) م.س ص: 206 ـ 232.

(45) م.س ص: 195.

(46) م.س ص: 218.

موضوع الشرح:

إن عناصر البحث في هذا التأليف تقوم على شرح الدرة النحوية في شرح الجرومية فهي ترتبط ارتباطاً واضحاً بأبوابها وفصولها، وتطالعنا في بداية الشرح مجموعة من الأدوات حاول عرض بعض الحالات التي تستعمل فيها. فتحدث عن أقسام التنوين[47]، وعن أداة التعريف «آل» سواء الداخلة على الفعل[48] أم على التمييز[49] أو الزائدة[50]، كما تحدث عن حروف الجر التي منها ما يكون اسماً[51]، ومنها ما يكون زائداً[52].

وبعد هذه المقدمة يقسم شرحه إلى أبواب، ويجعل لكل باب عنواناً أولها «باب الإعراب ثم باب معرفة علامات الإعراب، باب الأفعال، باب الفاعل، باب المبتدأ والخبر، باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر، باب النعت، باب العطف، باب التوكيد، باب البدل، باب المصدر، باب الظرف، باب التمييز، باب الاستثناء، باب لا، باب المنادى، باب المفعول من أجله، باب مخفوضات الأسماء وبه ختم أبوابه»[53].

إننا ونحن نتأمل أبوابه نرى شخصية الدقون العلمية وقدرته على الشرح والتحليل والاستنباط، وإبداء رأيه في مسائل تارة يكون فيها موافقاً لما ورد من آراء النحاة، وأخرى مخالفاً لهم ولصاحب الدرة النحوية[54]، من ذلك قوله في باب الأفعال: في موضوع الجوازم لفعلين حيث ذكر الشريف أن مجيء الشرط مضارعاً والجواب ماضياً غير فصيح، ولم يأت إلا في الشعر ومنه:

---

(47) م.س ص: 198 ـ 199.

(48) م.س ص: 204 ـ 205.

(49) م.س ص: 206 ـ 207.

(50) م.س ص: 205 ـ 206.

(51) م.س ص: 216 ـ 217.

(52) م.س ص: 207 ـ 208.

(53) م.س ص: 218 ـ 302.

(54) م.س ص: 201/ 257 ـ 292 ـ 302.

مـن يـكـدنـي بـسـيء كُـنْـتَ مـنـه كـالـشـجـا بـيـن حـلـقـه والـوريـد

قال الدقون: من: شرط مبتدأ، يكدني: مضارع مجزومه، بسيء: بأمر سيء متعلقه، كنت: جوابه منه متعلقه، كالشجا: ما يتنسب في الحلق مطلقاً، بين: ظرفه، حلقه: مخفوضه، والوريد: عرق غليظ في العنق أي: من يرد مكيدتي لا يقدر على ذلك، لأنك قادر على أن تذيقه أصناف المهالك.

فوائد: البيت لأبي زيد، والشاهد فيه قوله: كنتَ وهو بفتح التاء جواباً للمضارع، واستضعفه بعضهم، وتبعهم سيدي الشريف حتى قالوا: إنه خاص بالضرورة، وليس في كلام الفصحاء. وصحح ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ جوازه لوجوده في كلام أفصح الفصحاء قال ﷺ: «من يقم ليلة القدر غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

فاعترضوا عليه الاستدلال بالحديث قائلين: لا حجة فيه لجواز نقله بالمعنى. قلت: ما قاله ابن مالك هو الصواب وإلا فيلزمكم أن تقولوا ألا يعمل به لجواز قلب المعنى الذي يعني.

ونقله بالمعنى متوهم، والأصل عند السلف أداء لفظه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما سمعوه للتبرك بألفاظه الكريمة، ولأن كل كلمة تحتها حكمة عظيمة إذ هو ﷺ لا ينطق عن الهوى، والأصل: البقاء على الأصل، هذا مع عدم السماع فكيف وقد ورد في أشعار العرب؟!...

وأما نقله بالمعنى ففيه اختلاف كثير، والأشهر: المنع. وقال ابن أبي جمرة: «يجوز نقله بالمعنى لمن عرف المعنى، فافهم»[55].

ويبدو من خلال هذا النص موافقة الدقون لابن مالك في جواز مجيء الشرط وصحته مضارعاً والجواب ماضياً، معتمداً في ذلك على ما جاء عند أفصح الفصحاء ﷺ.

---

(55) م.س ص: 257 ـ 258.

قيمة الكتاب: فهذا نموذج من تلك النماذج الكثيرة والمتنوعة التي يعرض بها شرح شواهد الشريف، فلقد جعل من النص الأدبي مجالاً لتطبيق القواعد اللغوية والنحوية، وهو منهج اعتمده العرب يرتكز على دراسة اللغة معجماً ونحواً وإعراباً والبحث عن الشواهد التي تتوافر فيها هذه العناصر، سعياً وراء تقويم اللسان من العجمة واللحن والابتذال وتحقيق الإيضاح والبيان، وهو نوع من النقد التفسيري الذي غالباً ما يتناول أفصح النصوص الإبداعية وأحسنها وأشهرها، باعتبارها نصوصاً سيستشهد بها في علوم العربية، «واختيارهم للبيت الواحد من القصيدة لإيمانهم بوحدة البيت الشعري واستقلاله بل ربما أرادوا أن يكون لكل بيت معنى قائماً بنفسه فلا يحتاج إلى غيره»[56].

والدقون في شرحه حاول التوفيق بين مختلف هذه العناصر. ويبقى السؤال عن ظاهرة الشروح لنفسها، هل هي دليل على انحطاط الفكر في هذه المرحلة؟ إذ الشرح خطاب ذاتي يعكس الخطاب الأصلي للنص، فالشارح يختلي بالنص، وفي هذه الخلوة تتدخل عوامل كثيرة تتصل بالشارح، تتدخل ثقافته الشخصية ومكوناته النفسية، ومواقفه الإيديولوجية، وموقعه الطبقي... وهذه الخلوة بالنصوص هي التي جعلت من نتائج الشروح أموراً نسبية جداً لأنها تظل ـ في نهاية الأمر ـ كلاماً على كلام»[57].

والواقع أن هذه أحكام قد تنطبق على بعض الشروح التي قد تكرر ما جاء في النص بصيغ أخرى، وإلا فإن هناك شروحاً لايشك أحد في جودتها، ومن ذلك شرح «بداية التعريف» إذ لم يكن الدقون مجرد مفسر أو ناسخ أو واصف لكلام الشريف، بل كان أديباً قدم مجموعة من التراجم لأشهر الشعراء، ومحللاً لكل الشواهد الشعرية لغة ونحواً وإعراباً، وناقداً محكماً بما قدمه من فوائد يبين فيها الصائب من آراء العلماء، مقوماً اختلافاتهم، دون إغراق في الاستنباطات

---

(56) نقد النثر تقديم طه حسين، تحقيق: عبد الحميد العبادي ص: 89، بتصرف.

(57) مناهج الدراسات الأدبية: حسين الواد، ص: 49 منشورات عيون المقالات ط: 4/ 1988.

والتحليلات، التي قد تدفع القارىء إلى العزوف عن بعض أنماط هذا النوع من التأليف.

ومن ثم كان هذا الشرح مؤسسة تعليمية، وصورة لما كان يدرس في عصره، تبرز مهارة المؤلف في علوم مختلفة؛ إذ جمع بين ضروب من الآداب ما بين منثور ومنظوم، وما بين شرح غريب وفك مستغلق، إذ يغنيك بنفسه عن الرجوع إلى غيره، وفي ذلك تكمن قيمته العلمية والتاريخية.